

الأسبانية، مثلما أنه مرتبط برغبة الكاتب الأسباني في تجاوز تلك العلاقة.^(١٤) فلم ينس الكاتب الأسباني وهو يأخذ بأدب وطنه إلى آفاق عصر النهضة أن يلتفت التفاتة عرفان للدور الحيوي الذي لعبته الثقافة العربية الإسلامية في حياة الأندلس، وللعلاقة العضوية المستمرة بين تلك الثقافة وأدب أسبانيا وهو ينحو باتجاه ما اعتبره سرفانتيس هوية بلاده وثقافتها الحقيقية ضمن العالم الأوروبي المسيحي. فإذا حياً المؤلف الأسباني مؤلفاً عربياً هذه التحية الرمزية، فإنه لا ينسى أن يُذكر القاريء بأن ما فعله رمزي فعلاً، وأن ما فعله سيدي حامد لم يكن ليحدي لولا وجود سرفانتيس نفسه. فكاراسكو الذي أثنى عليه سيدي حامد مرة يمضي ليثني ثلاثاً على «الرجل صاحب النوق الذي تكبد المتاعب لكي يترجم [تاريخ دون كيهوته] من العربية إلى قشتاليتنا العامية، من أجل متعة الإنسانية» (ج ٢، فصل ٣، ص ٤٨٦). ففي عربيتها لم تكن رواية دون كيهوته لتمتع العالم. كان لابد من لغة أسبانية تخرج منها هذه التحفة الإبداعية وكأنها طائر الفينيق يخرج من رماد العصور السابقة، أو الثقافة المنقرضة.

إن توظيف سرفانتيس لسيدي حامد بننجلي إنما يعكس في نهاية المطاف رؤية الكاتب لطبيعة العلاقة بين العربي والأوروبي. فمثلما يفضي المؤلف العربي إلى المؤلف الأسباني، تفضي أسبانيا العربية إلى أسبانيا الأوروبية. ولكن اقتصار دور المؤلف العربي على تسجيل التاريخ الأسباني وحفظه، كما يتمثل ذلك التاريخ جزئياً ورمزياً بتاريخ دون كيهوته، يعني أن هوية أسبانيا العربية كانت مجرد هوية مؤقتة لم تزد على أن حفظت الهوية الأصلية، وهي الهوية الأسبانية الأوروبية. فسيدي حامد يذكر الأسباب بدون كيهوته، وليس بأحد فرسان العرب ممن لا شأن للأسبان بهم. ولربما تأملنا عبر هذا المدلول إرهاصات الرؤية الغربية التقليدية والاستشراقية الخاطئة بالطبع للحضارة العربية الإسلامية بوصفها مجرد حلقة وصل بين حاضر أوروبا وما انقطع من تاريخها الحضاري. ففي العصور التالية ستكرس الدراسات الاستشراقية

Americo Castro, "The Meaning of Spanish Civilization," *An Idea of History*, tr. Stephen Gilman and Edmund L. King (Columbus: Ohio State UP, 1977) 154-55 . (١٤)